جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي

مقياس : العلاقات بين الغرب الاسلامي والعالم المسيحي

المستوى : ثانية ماستر تاريخ وسيط

الأستاذ : سليم حاج سعد

محاضرة رقم 02

جوانب من العلاقات الإقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط قُبيل القرن العاشر للميلاد

هل يحتاج الباحث المعاصر إلى تأكيد أهمية البحر المتوسط جغرافيّاً وتاريخيّاً عبر العصور ؟ لقد تصارعتْ وتعايشت حول هذا البحر قوى حضارية كبرى منذ القديم. للدلالة على ذلك، يكفي استعراض أهم الحضارات التي نسجت تاريخاً حوله. وكم هي الأبحاث والدراسات التي أنجزت في ميادين مختلفة حول الحضارات المتوسطية.

لماذا موضوع العلاقات الاقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للمتوسط قُبيل القرن العاشر ؟[1].

البحث المعاصر في الموضوع

يتضح من استعراض أهم عناوين الأبحاث التي أُعِدَّت حول تاريخ أو اقتصاد البحر المتوسطي في جزئه الغربي أن أغلبَها انطلق من القرن العاشر الميلادِي لأسباب عديدة لعل أهمَّها مرتبط بأدوات البحث نفسه، أي بتوافر المصادر والوثائق بشكل واضح ومهم ابتداء من هذه الحقبة التاريخية.

يعتقد الدَّارسون أيضاً أن مرحلة ما قبل القرن العاشر اتَّسَمت عادة بالإضطرابات العسكرية وبعدم الإستقرار في جل أنحاء المتوسط، ويصعب الحديث

(1) نقصد بالعلاقات الاقتصادية في الحوض الغربي للمتوسط قُبيل القرن العاشر، تلك العلاقات التي وجدت بشكل أو بآخر بين أوربا المسيحية والغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. ولاشك في أن الموضوع متشعب ؛ وهذا العرض لا يَدَّعي الإلمامَ بمختلف التساؤلات المرتبطة به أو الإجابةَ عليها.

عن علاقات اقتصادية في ظل الصراعات العسكرية والسِّياسية. إضافة إلى ذلك، يُلاحظ أن أهم الأبحاث حول العلاقات في البحر المتوسط عموماً ركّزت اهتمامها على الأجزاء الشرقية منه.

لهذه الإعتبارات وغيرها، تبرُز أهمية إثارة موضوع العلاقات الإقتصادية في الجزء الغربي للمتوسط قبيل القرن العاشر، من بعض جوانبه على الأقل. إنه موضوع يحتاج ـ فيما نعتقد ـ إلى دراسات مختلفة في المجالين الإقتصادي والبشري.

نظرية هنري بيرين

إن الدَّارس للعلاقات الإقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للمتوسط خلال العصر الوسيط عموماً لا يُمكنه أن يُغفِل العلاقات في كل أجزاء المتوسط نظرا للتأثيرات المختلفة، كما لا يُمكنه تجاهل نظرية المؤرخ البلجيكي الكبير والمعروف هـ. بيرين (Henri Pirenne) في الموضوع.

يُلاحظ بصدد هذه النظرية أنها ـ رغم قدمها وأهميتها ـ لم تستأثر بشكل واضح باهتمام الأبحاث والدراسات العربية كما هو شأن الدراسات الأوروبية أو الاستشراقية. فرغم ما أثير حولها من نقاشات بل من نظريات مضادة لا يزال البحث العربي في حاجة إلى صياغة أسئلة جديدة حولها. إن أهم ما جاء في نظرية هـ. بيرين وارد في كتابه المشهور «**محمد وشارلمان**»[2]. لقد اعتقد أن القطيعة حدثت في البحر المتوسطي بسبب ظهور المسلمين وسيطرتهم على معظم أجزائه، الشي الذي أدى إلى توقف العلاقات التجارية خلال القرن الثامن. انطلق المؤرخ هـ. بيرين من عدة معطيات واردة في الوثائق الأوروبية المسيحية الميروفينجية والكارلنجية ليؤكد ذلك التوقف التجاري بحيث استَدَلَّ على ذلك مثلًا بانقطاع مجموعة من المواد التي تستفيد منها أوربا آنذاك كالتوابل والبردي وغيرها.

إن التجدد الإقتصادي وتطور العلاقات الإقتصادية والتجارية لم تتحَقَّق ظروفه حسب هـ. بيرين إلَّا آبتداء من القرن الحادي عشر الميلادي.

حتى لا ندخل في تفاصيل ما ورد حول نظرية المؤرخ هـ. بيرين نكتفي

(2) Pirenne (H), **Mohamet et Charlemagne**, Paris, P.U.F, 1970.
كُتب هذا المؤلف منذ الأربعينات ونعتقد أنه، رغم بعض الملاحظات التي ترد حوله من حين لآخر اعتماداً على الدراسات الأوربية أو الاستشراقية، ما يزال يحتفظ بأهميته ويحتاج إلى ترجمة عربية مدققة.

بالوقوف عند مثالين من الأبحاث التي أثارت نقاشات طويلة حولها وتجاوزتها بعد تفنيدها.

ويتلخص المثال الأول في آراء المستشرق المعروف موريس لُمْبَار[3] (Maurice Lombard) الذي لاحظ أن هـ. پيرين انطلق من الوثائق المسيحية (الأوربية) وحدها ليبني نظرية لا تَعني أوربا المسيحية وحدها، بل تعني كذلك العالمين الإسلامي والبيزنطي، مِمَّا يستوجب البحث في وثائق مختلفة تهم الحضارات الثلاث. عاكس لومبار آراء پيرين، وبَيَّن أن البيزنطيين هم الذين أثروا سلبا في العلاقات الإقتصادية المتوسطية لأنهم لم يتمكنوا من إيقاف تراجع أوربا المسيحية. أما المسلمون، في نظر لمبار، فشكلوا في جل أنحاء المتوسط قوة اقتصادية هامة استفادت منها أوربا[4].

المثال الثاني بصدد نظرية هـ. پيرين وارد في آراء كل من جاك لُگَوف (Jacques Le Goff) وج. ن. بيرابن (J.N. Biraben)[5] حين درسا أسباب التحولات الإقتصادية التي طرأت على أوربا المسيحية نفسها لما انتقلت التجارة وقطب الحياة الإقتصادية من الجهات المتوسطية من أوربا إلى الشمال.

ليس الإسلام هو الذي أثّر على أوربا كما اعتقد هـ. پيرين، بل مرض

(3) Lombard (M.), «Mohamet et Charlemagne : le problème économique», dans **Espaces et réseaux du Haut Moyen Age**, Paris — La Haye, Mouton, 1972 pp. 32-45.

(4) Lombard (M.), **Mohamet... art. cit.**, p. 3.

الأفكار نفسها دافع عنها كل من أرشيبالد Bautier و : أرشيبالد (ل.)، **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط : 1100/500 م**، الترجمة العربية. القاهرة، 1951.

Bautier (Robert-Henri), «Les grands problèmes politiques et économiques de la Méditerranée médiévale», dans **Revue Historique**, 1965, pp. 1-28.

هناك نقاش حول التطورات الاقتصادية التي عرفتها أوربا خاصة منذ الكارلنجيين. هل ساهمت العوامل الخارجية في تلك التطورات، أم كانت العوامل الداخلية كالنمو الحضريّ وتطور العلاقات الإجتماعية والإقتصادية داخل وحدات الإنتاج، هي الحاسمة. أنظر مثلا :

White (L.), **Technologie médiévale et transformations sociales**, Paris, 1969 ; Toubert (P.), **Les structures du Latium médiéval**, Paris, 1973, 2 vol ; Bonnassie (P.), **La Catalogne du milieu du X^e à la fin du XI^e siècle : Croissance et mutations d'une société**, Toulouse, 1975-1976, 2 vol.

(5) Le Goff (J.) et Biraben (J.N.), «La peste dans le Haut Moyen Age», dans **Annales E.S.C.**, N°6, 1969, pp. 1481-1510 ; Biraben (J.N.), **Les Hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens**, Paris, La Haye, 1975. 1976, 2 T.

الطاعون ـ يقول الباحثان ـ الذي انتشر بحدة في المناطق المتوسطية منذ أواسط السادس الميلادي، وهو المسؤول الأوّل عن ضعف المناطق الجنوبية اقتصاديّاً وبشريّاً.

يُمكن القول ـ دون الإطالة في هذا الموضوع ـ إنه بالرغم من الثغرات المتعددة التي تضمّنتها نظرية هـ. بيرين والانتقادات العنيفة أحياناً والموجّهة إليها، يُجمع الدارسون أن المؤرخ الكبير هـ. بيرين كان أوّل من طرح موضوع العلاقات الإقتصادية بين العالمين المسيحي والإسلامي للبحث التاريخي والإقتصادي. يلاحظ في هذا الصّدد أن العالم المسيحي الغربي والعالم الإسلامي تميّز تاريخهما منذ أمد طويل بالصراعات والحروب وبالإحتكاك والتواصل أيضا كما قال فرناند بروديل[6] الخبير في تاريخ البحر المتوسط. إن الغرب المسيحي والعالم الإسلامي يجمعهما تعارض كبير وعميق قائم على العداء والتنافس والإقتباس أيضاً : إنهما عدوان متكاملان[7].

تجدرُ الإشارة إلى أن العديد من الدارسين ـ عرباً وأوروبيين ـ كثيراً ما آختبأوا وراء فكرة العداء السياسي والعسكري الذي طبع العلاقات بين أوربا المسيحية والغرب الإسلامي قبل القرن العاشر الميلادي ليُؤكّدوا أو يُبَرِّرُوا آنعدام التواصل الإقتصادي والبشري بينهما. وأكثر من ذلك لا تخلو بعض الأبحاث[8] أحياناً من نفحات تعصُّبية مبالغ فيها أحياناً، لأن الموضوع يتّسم بنوع من الحساسية.

تساءل دارسون آخرون[9] بنوع من الإلحاح كيف أن التجارة الأندلسية التي كانت نشيطة في المتوسط، بل في كل الجهات: إذ ذهبت حتّى الهند والصين، كانت منعدمة بين الغرب المسيحي القريب والأندلس أو المغرب إلى حدود القرن العاشر على

---

(6) Braudel (F.), La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, A. Colin, 1985, T 1, p. 96.

(7) بروديل (ف)، **المتوسط والعالم المتوسطي**، تعريب مروان أبي سمرا، بيروت، دار المنتخب العربي ؛ 1993، ص. 136.

(8) آنظر مثلًا المقدمة التي وضعها الكونت ده ماسلاتري (Le comte De Maslaterie) لِكتابه : **Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes au Moyen Age**, Paris, 1886.

(9) آنظر مثلا : الطاهري (أحمد)، «الرحلة التجارية الأندلسية من خلال كتب التراجم والطبقات» في : **دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس**، البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1993، ص. 57ـ75.

الأقل[10]. اعتمد باحث آخر[11] على كتابات بعض الفقهاء أو على النوازل الفقهية[12] ليلاحظ أن التجارة الأندلسية تأثرت بعقلية الفقهاء المالكيين المتشدِّدين والمناهضين لكل نشاط تجاري.

يمكن القول في هذا الصدد إن بعض كتب التراجم والطبقات، بالرغم من أهميتها، لا تقدم لوحدها تصوراً واضحاً في المجال التجاري أو الاقتصادي ؛ كما أن كتب النوازل مفيدة في المادة التاريخية، لكنها تتّسِم أحياناً بنوع من العمومية لأنها تفتقد الضبط الزماني والمكاني[13].

إنطلاقاً من الملاحظات السالفة الذكر يمكن، فيما نعتقد، البحث في موضوع العلاقات الإقتصادية بين أوربا المسيحية والغرب الإسلامي قُبيل القرن العاشر الميلادي بَدْءاً من محاولة جمع النصوص المرتبطة بالموضوع ـ على قِلّتها ـ والمبثوتة في ثنايا المصادر والدراسات سواء العربية أو الأجنبية وتصنيفها لعلها تنير جوانب متعددة من الموضوع. وكما سبق القول، إن صمت المصادر العربية ربما لا يقابله صمت المصادر الأوربية.

لقد أشار العديد من الباحثين منذ فترة إلى وجود علاقات اقتصادية وتجارية بين أوربا المسيحية والغرب الإسلامي قبيل القرن العاشر، لكن دون الوقوف عند

---

(10) اعتمد الباحث الطاهري على مصادر لا تتحدث عن التجارة الأندلسية الأوربية إلا ابتداء من أواسط القرن العاشر. آنظر مثلًا : ابن حيان (القرطبي)، **المقتبس**، ج 5، تحقيق شالميتا، كورنيطي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد ـ الرباط، 1979،
أما المصادر الأخرى المعتمدة، أي كتب التراجم والطبقات، فقد اعترف أنها أهملت الحديث عن التجارة مع أوربا، لأنها اهتمت بالتأريخ لأهل العلم والقلم (انظر : **الرحلة التجارية، مرجع سابق**، 8).

(11) القادري بوتشيش، **أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث هـ حتى ظهور الخلافة** (250 هـ 316 هـ)، الرباط، عكاظ، 1992، ص. 131، 161، 398.

(12) من أهمها مثلًا : الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق مجموعة من الأساتذة تحت إشراف محمد حجي، الرباط، وزارة الأوقاف، 1981.

(13) اعتمد الونشريسي على كتاب ابن رشد «**التجارة إلى أرض الحرب**» ليورد نوازل متعددة مرتبطة بتحريم كل ما له علاقة بدار الحرب، وكل ما من شأنه أن يفيد الكفار والأوربيين ضد المسلمين. انظر أمثلة في : ج 124/2، 126 ؛ ج 180/6.

طبيعتها نظراً لغلبة النزاعات السيّاسية والعسكرية[14] ـ كما سبق القول. نتساءل هنا ألا يمكن أن تدفع الصراعات والحروب نفسها إلى إيجاد نوع من العلاقات التجارية والبشرية ؟ ومن ثم يُلاحظ أن الحملات الإسلامية على المتوسط خلال القرنين الثامن والتّاسع وكذا الحملات (النورماندية) من شمال أوربا نحو المتوسط قد ساهمت في إيجاد مجالات تجارية برّاً وبحراً، خاصة إذا علمنا أن كلّا من المسلمين والنورمان قد مارسوا التجارة إلى جانب العمليات العسكرية. يقول المؤرخ جورج دوبي (Georges Duby)[15] في هذا الباب متحدثاً عن حملات القرن التاسع في أوربا أنه كثيراً ما كانت الحرب المفتوحة سبباً أساسيّاً للنمو الإقتصادي.

وأضاف لمبار[16] (Lombard) في السّياق نفسه أن الحملات العسكرية خلال القرن التاسع في الحوض الغربي للمتوسط (صقلية ـ كورسيكا ـ كريت)، صاحبتها عمليات التموين والبحث عن مادة الأخشاب الثمينة والمستعملة ليس في صناعة الأساطيل الحربية فحسب ولكن التجارية كذلك. ولاحظ دوماسلاتري[17] من جهته من خلال الوثائق الكنسية أنه بالرغم من علاقات العداء في الحوض المتوسطي، لم تنقطع الإتصالات السّلمية بين المغاربيين والسكان اللّاتين. وبَيَّن أرشيبالد[18] وهايد[19]، اعتماداً على مصادر عربية مختلفة، أن الروم[20] زاروا إفريقية لأعمال التجارة خلال فترة السيادة البيزنطية (752 ـ 827).

---

(14) لا نتفق مع رأي المؤرخ بيير بوناسي (Pierre Bonnassie) حين يؤكد أنه إلى حدود القرن X م لم تكن هناك تقريباً علاقة تذكر بين الإسلام الإيبيري والمسيحية القطلانية : لا يلتقي الطرفان ـ حسب رأيه ـ إلا في الحروب. (انظر : Bonnassie (P.), La Catalogne... op. cit, T1, p. 340).

(15) Duby (G.), Guerriers et paysans : VII - XII[e] siècles : premier essor de l'économie européenne, Paris, Gallimard, 1973, p. 160.

(16) Lombard (M.), «Le bois dans la Méditerranée musulmane, VII-XII siècles, un problème de cartographie», dans Espaces et réseaux.. op. cit. , pp. 153-176.

(17) Mas-Latrie (le Comte de), Relations et commerce... op, cit., p. 17.

(18) أرشيبالد (ل.)، القوى البحرية ... مرجع سابق، ص. 70.

(19) هايد(ف)، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص. 108.

(20) أشار أرشيبالد إلى أن الروم هم اليونان أو البيزنطيون، لكن يبدو أن كلمة الروم ربما تعني كذلك التجار الإيطاليين والأوربيين (انظر :

Goitein (Shelomo D.), «Le commerce méditerranéen avant les croisades : quelques faits (et problèmes», dans Revue Diogène, N° 59, Paris, Gallimard, 1967, pp. 52-68.

دور إيطاليا واليهود

إذا سلمنا بعدم انقطاع العلاقات الإقتصادية والبشرية بين أوربا والغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع، فكيف كانت الأساليب التجارية آنذاك ؟ ومن هم النشيطون فيها ؟ وماهي المواد المطلوبة في الحركة الإقتصادية ؟

يمكن الإشارة إلى ظاهرة واردة في المصادر العربية والأجنبية، وهي دور الوساطة الإيطالية واليهودية في تجارة الحوض الغربي المتوسطي. لقد نشط تجار المدن الإيطالية، كالبندقية، في تجارة مواد الأخشاب والرقيق إلى شواطئ المتوسط الغربي، وربما قدم هؤلاء إلى ثغور شمال إفريقيا خلال منتصف القرن الثامن(21). حاول هؤلاء التجار كذلك التوفيق بين مصالحهم المتمثلة في البحث عن الأرباح وبين احترام القوانين التي وضعها بعض البابوات أو بعض الأباطرة البزنطيين والكارلنجيين، والتي تحاول منع بيع مواد مهمة كالأسلحة والأخشاب للمسلمين سواء في شرق المتوسط أم في غربه(22).

إلى جانب تجار البندقية، نشطت وساطة تجار نابلي (Naples) في تجارة شمال إفريقيا وإسبانيا خلال الفترة الكارلنجية(23). اهتم هؤلاء بتصدير العبيد ومنسُوجات القسطنطينية مقابل زيت الزيتون والسلع الشرقية التي يأخذونها من باليرمو وشمال إفريقيا والأندلس(24). لوحظ كذلك في آخر القرن الثامن نشاط تجاري ببعض المدن والمراكز الواقعة على الساحل الفرنسي الإيطالي خاصة بين ناربون ومصب نهر التيبر حيث نشط بعض التجار الأندلسيين الذين اشتغلوا بنقل بضائع ومواد إلى مدينة آرل(25). كما وجد تبادل تجاري، خاصة في أواخر القرن التاسع بين مدينتي ناربون ومرسيليا اللتين تزعمتا نشاط ظاهرة المساحلة المتَّجِهة نحو الأندلس(26). وتُعنى بتجارة الرقيق، وذلك مقابل مواد أندلسية كالجلود(27).

(21) أرشيبالد (ل)، القوى البحرية..، مرجع سابق، 179.

(22) Lombard (M.), «Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane VII- XI siècles», dans Réseaux et espaces... op. cit, pp. 107. 151.

لاحظ لومبار أن تجارة الأخشاب لم تنقطع في الواقع في المتوسط رغم منعها، وربما نشطت حركة التهريب لأن القوانين لا تقف في وجه المصالح الاقتصادية.

(23) أرشيبالد (ل)، القوى البحرية...، 180.

(24) نفسه، 271.

(25) أرشيبالد (ل)، القوى البحرية...، المرجع السابق، ص. 180.

(26) Contamine (Ph.) et autres, L'économie médiévale, Paris, A. Colin, 1993, p. 100.

(27) نفسه، ص. 75، 100.

لاحظ أرشيبالد[28] بنوع من الإستغراب وجود إشارات تبيّن علاقات تجارية بين إنجلترا ومسلمي الأندلس خلال فترة السّيادة البيزنطية في المتوسط والتي امتدت إلى النصف الأول من القرن التاسع. وتبيَّن ذلك من خلال وجود تاجر إنجليزي بمدينة مرسيليا[29]. ربما يزول استغراب أرشيبالد حين نعلم من خلال وثائق أوروبية متعددة بوجود أسواق نسوية فرنسية كان يتردد عليها الإنجليز منذ القرن الثامن[30]، وربما ارتبط هؤلاء أو بعضهم بالأندلس برّاً أو بحراً. في هذا السياق، أكد كل من لومبار[31] وهايد[32] أن جل المواد التي كان الغرب المسيحي يستوردها، خاصة الأقمشة الثمينة، تأتي من التجارة البيزنطية أو البندقية باستثناء مادة القماش المسماة في الوثائق الكنسية المسيحية Spaniscum التي كانت تستورد مباشرة من أوراش الأندلس[33].

لاشك أن لومبار وهايد أشارا إلى ما ذكره الرازي الأندلسي بصدد مدينة سرقسطة حين قال : «سكانها جيّدون في الصناعة يصنعون قُماشاً غالي الثمن معروفا على الصعيد العالمي»[34].

يلاحظ من خلال ما سبق أن التجارة الأوربية الأندلسية لم تنتظر القرنين العاشر والحادي عشر، لتنطلق كما يُستفاد من نصوص بعض المصادر[35]؛ لكن في الوقت نفسه لا يجب المبالغة في القول إن تلك التجارة كانت جد نشيطة قبيل القرن

---

(28) أرشيبالد (ل)، **المرجع السابق**، ص. 181.

(29) **نفسه**، ص. 181.

(30) Duby (G.), **Guerriers et paysans... op. cit**, p. 118.

(31) Lombard (M.), «L'or musulman du VII au XI[e] siècle : les bases monétaires d'une suprématie économique», dans **Espaces et reseaux, op. cit.**, p. 7-31.

(32) هايد (ف)، **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**، تقديم عزالدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص. 110.

(33) Lombard (M.), «L'or musulman...», **art. cit**, p. 24.

(34) **Lévi-Provençal (E.), La description de l'Espagne d'Ahmad Al Razi**, Le Caire, 1955, p. 63 et sq.

(35) أنظر مثلا : ابن حيان (القرطبي)، **المقتبس**، ج 5، ... **مصدر سابق**، ص. 478 ؛ ابن سعيد (المغربي)، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، 1970.
يتحدث ابن سعيد عن التجارة، إذ تُجلب مواد القصدير والنُّحاس من إنجلترا وإرلندة إلى الأندلس، ص. 181.

العاشر كما يُستَشَفُّ أيضا من خلال بعض الدراسات[36].

أما دور اليهود كعنصر بشري نشط في التجارة الدَّولية منذ القديم، فالمصادر العربية المشرقية والأندلسية والمغربية[37] وكذا الأوربية[38] تقدم معلومات ضافية عن تحركاتهم التجارية إلى كل المناطق والجهات[39]. إن الذي يعنينا في هذا المجال هو احتكار اليهود لمواد تجارية تحفظ لهم الوساطة المربحة والناجحة في الحوض الغربي للمتوسط. لقد ازداد نشاطهم أكثر لما اختفى التجار المشارقة خاصَّة المصريون والسوريّون من أوربا مع مطلع القرن الثامن للميلاد.

لقد نجح اليهود خلال هذه الفترة في تجارة الرقيق بين المسيحيين والمسلمين. ففي هذا الباب تحدث ل. بروفنسال[40] نقلًا عن مصادر عربية عن أهمية تجارة الخصيان الموجهة إلى حراسة الحريم ودُور الأمراء المسلمين. وبيَّن المؤرخ الفرنسي جورج دوبي (Georges Duby)[41] في هذا الإطار نشاط تجارة الرقيق السلافي والجرماني التي قادها اليهود خاصة من فرنسا نحو البحر المتوسط خلال القرن الثامن بحيث نشط الخط القادم من أوربا الشرقية عبر بلاد الفرنجة، أي محور فردان ـ حوض السون والرون نحو المراكز الإسلامية الأندلسية. لاشك في أن تجارة الرقيق عبر المراكز

---

(36) آنظر مثلًا : محمد مرسي الشيخ، **دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن X م**، مؤسسة الثقافة الجامعية، 1990. يُبالغ كثيراً حين يؤكد آنتعاش التجارة والصناعة في الأندلس التي صدرت إلى دولة الفرنجة. (انظر ص. 230).

(37) آنظر مثلًا : ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله)، **المسالك والممالك**، طبعة 1889، Brill De Goeje, ؛ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، **كتاب البلدان**، نشر De Goeje، ليدن، 1885، ص. 270 ؛ ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق كولان، بروفنسال، بيروت، 1980، ج 2 ؛ المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968.

(38) انظر عن اليهود في المصادر الأوربية مثلًا :

Grégoire de Tours, **Histoire des Francs**, traduit du latin par P. Latouche, Paris, Les Belles Lettres, 1963.

(39) يصف ابن خرداذبة نشاط اليهود الرادانية الذين يتقنون اللغات ويعرفون المسالك التجارية وغيرها. انظر : **المسالك والممالك**، **مصدر سابق**، ص. 153.

(40) Levi-Provençal (E.), **La Civilisation arabe en Espagne : vue générale**, Le Caire, 1938, p. 117.

(41) Duby (G.), **Guerriers et paysans...**, op. cit., p. 126.

المذكورة كانت مفيدة للعالم المسيحي الذي كان يصدر هذه المادة الآدمية مقابل أموال مهمة[42]. وفي هذا السياق تفهم صيحات أكوبار (Agobard) ـ أسقف مدينة ليون، وهو من أهل القرن التاسع الميلادي ـ حين استنكر ما يقوم به اليهود من المتجارة بالرقيق والخصيان[43]. وقد تزامن نداؤه مع محاولة بعض الأمراء المسيحيين سن قوانين تحظر تلك التجارة، خاصة أنها تتَّجه نحو العدو الإسلامي في الأندلس وشمال افريقيا.

تجدر الإشارة إلى أن اليهود لم يحتكروا لوحدهم كل تجارة الرقيق الذاهبة أو الرائجة في الغرب الإسلامي، فلاشك في أن الأغالبة في شمال إفريقيا كانت لهم صلات تجارية ـ ولو محدودة ـ مع الكارلنجيين خلال القرن التاسع، وربما تعاملوا معهم في تجارة الرقيق[44]. وكما سبق القول، كان لتجار بعض المدن الإيطالية، خاصة نابلي والبندقية، الذين تحالفوا لفترة محدودة مع الأغالبة، كان لهم دور مهم في تصدير الخشب والرقيق الأبيض إلى إفريقية[45].

الأندلس وشمال إفريقيا

بقيت الإشارة إلى أن العلاقات الإقتصادية والبشرية بين الأندلس وشمال إفريقيا تختلف عن العلاقات بين أوربا المسيحية والعالم الإسلامي. فالمصادر المغربية والأندلسية[46] تقدم معلومات ضافية في غاية الأهمية عن طبيعة تلك العلاقات حسب العصور.

---

(42) Bonnassie (P), Les 50 mots clefs de l'Histoire médiévale, Toulouse, Privat, 1981, pp. 73-74.

(43) Duby (G.), Guerriers et paysans..., op. cit, p. 126. نجد أيضاً نوعاً من الإستنكار لتجارة العبيد والخدم في المصادر العربية خاصة، لأن المهتمين بها يتميزون بالمكر والابتعاد عن الشرع (انظر مثلاً : السقطي (المالقي الأندلسي)، **في آداب الحسبة**، تحقيق حسن الزين، بيروت، دار الفكر الحديث، 1987، ص. 63 وما بعدها).

(44) محمود إسماعيل، **الأغالبة (184ـ296 هـ) سياستهم الخارجية**، مكتبة وراقة الجامعة، فاس، 1978، ص. 187.

(45) أرشيبالد (ل)، **القوى البحرية...**، مرجع سابق، ص. 271 ؛ محمود إسماعيل، **الأغالبة...**، مرجع سابق، ص. 190.

(46) انظر على سبيل المثال لا الحصر: البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**، تحقيق دي سلان، باريس ـ الجزائر، 1965؛ ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب**، مصدر سابق، ج 2؛ =

النقد والعملة

في إطار العلاقات الإقتصادية بين الغرب المسيحي والغرب الإسلامي أو الإسلام عموماً، يمكن الوقوف عند قضية العُملة والنقود. فمما لاشك فيه أن العالم الأوربي المسيحي تأثر بالعالم الإسلامي القوي في هذا المجال. فالمصادر المختلفة العربية والأجنبية تتحدث عن كِمِّيات وأهمية النقود الإسلامية التي عثر عليها في شمال أوربا، خاصة خلال القرن التاسع(47)، وكذا رواج العملات الذهبية في إيطاليا وفي انجلترا ثم عملة فضية في السويد. كما عُرفت الدنانير الذهبية في إنجلترا خلال آخر القرن الثامن لمَّا أمر الملك أوفا (Offa) بسك دينار ذهبي مشرقي(48). تتجلى أيضا أهمية النقد الإسلامي وآثاره في أوربا من خلال كلمة المنقوش (Mancus)(49) التي عرفت في الوثائق الأوربية.

ويُلاحظ أن الكارلنجيين خلال فترة من القرن التاسع قد قلدوا العملة الفِضِّية التي كانت أيضا متداولة في الأندلس قبل عصر الخلافة، ومنها استخلصوا الفلس الكارلنجي. يتفق الدارسون على أن هذه العملات كانت قليلة القيمة في التجارة الدولية(50) إذا ما قورنت بالدينار الذهبي.

= ابن حيان (القرطبي)، **المقتبس، مصدر سابق**، ج 5 ؛ ابن حيان (القرطبي)، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، القطعة التي حققها محمود علي مكي، القاهرة، 1971 ؛ ابن حيان (القرطبي)، **المقتبس في تاريخ رجال الأندلس** (القسم الثالث)، نشر الأب ملتشورم، أنطونيه، باريس، 1937 ؛ ابن بسام (الشنتريني)، **الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، ليبيا ـ تونس، 1979 ؛ الحميدي، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، القاهرة، 1966 ؛ ابن بشكوال، **الصلة**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966 ؛ الضبي، **بغية الملتمس**، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967.

(47) Duby (G.), **Guerriers et paysans...**, op. cit., p. 144 ; Contamine (Ph.) et autres, **L'économie médiévale...**, op. cit., p. 117.

(48) Lombard (M.), **L'or musulman...**, art. cit., p. 26; Contamine (Ph.) et autres, op. cit., p.125.

(49) Contamine, op. cit., p. 125.

(50) أرشيبالدْ (ل)، **القوى البحرية**، مرجع سابق، ص. 193.

ومهما كانت الخلافات حول أسباب رواج هذه العملات(51) وآثارها في أوربا، فالذي يعنينا من ذلك هو أن الأوربيين تأثروا بالعالم الإسلامي في مجال النقد والعملة اللذين يؤثران بشكل واضح في الحياة الاِقتصادية والمالية.

خلاصة

من خلال ما سبق يتبيّن أن موضوع العلاقات الاِقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للمتوسط قبيل القرن العاشر للميلاد، ما يزال في حاجة إلى المزيد من الاِهتمام والعناية من قبل البحث التاريخي والاِقتصادي حتّى يتخلص من الطابع العسكري والسياسي الذي يطبع كثيراً من الدراسات. إن هذا الموضوع يحتاج ـ في اعتقادنا ـ إلى تكثيف جهود الباحثين من مختلف البلاد المتوسطية، لأن الأمر يتعلق بالبحث في وثائق ومصادر مختلفة لا تهم الحضارة الإسلامية وحدها بل تهم أيضا الوثائق البزنطية والإغريقية واللاتينية.

(51) اختلف الباحثون حول أسباب استخدام العملة الفضية في أوربا على عهد الكارلنجيين. فمنهم من اعتقد أن استخدام عملة الفضة يدل على الضعف الإقتصادي أو السياسي للدولة الكارلنجية، ومنهم من وضح أن اختفاء عملة الذهب يُترجم بُطء الحياة الاقتصادية والمبادلات. (انظر مثلًا : Pirenne (H.), **Histoire économique et sociale du Moyen Age**, Paris, 1963 ; Renouard (Y.), **Les Hommes d'affaires italiens du Moyen Age**, Paris, A. Colin, 1968, p. 23 ; Bonnassie (P.), **Les 50 mots clefs...**, **op. cit.**, p. 145, 146, 147.